# رَبِّ هذا قتلني

عن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال:

سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«يأتي المقتول متعلقاً رأسه بإحدى يديه مُتلبباً قاتله بيده الأخرى تشخُبُ أوداجه دماً حتَّى يأتي به العرش، فيقول المقتول للَّه: رَبِّ هذا قتلني. فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ للقاتل: تَعسْتَ ويُذهَبُ به إلى النار»(١).

عباد اللَّه الذين عبدوا ويعبدون إلهاً واحداً لا شريكَ له هم الذين يحترمون ما خلق اللَّه، ويحترمون النفس البشرية، فلا يعتدون عليها، بل يُحقِّقون مراد اللَّه بصيانتها والحفاظ عليها؛ لذلك قال الحق سبحانه عنهم: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الأداء القرآني هنا يأخذ لفظ (تَعَالَ) بفهم أعمق من مجرد الإقبال، كأن الحق يقول: أقبل عليّ إقبالَ مَنْ يريد التعالي في تلقِّي الأوامر. فأنت تُقبل على أوامر اللَّه لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية، فلا تأخذْ قوانينك من حضيض تشريع البشر؛ لأن الشرط الواجب في المشرِّع ألَّا يكون مُساوياً لمَنْ شرَّع له، وألَّا يكون منتفعاً ببعض ما شرَّع، وأنْ يكون مُستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء، والمشرِّع من الخَلْق لا يُشرِّع إلا بعد اكتمال عقله ونُضْجه.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٠٧٤٢) بهذا اللفظ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢١٤٢، ٢٦٨٣، ٣٤٤٥) بنحوه وقال الشيخ أحمد شاكر في هذه المواضع جميعاً: إسناده صحيح.

ولا يقدر مُشرِّع البشر أنْ يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع، فالرأسمالي مثلاً يُشرِّع ليستفيد، والماركسي يُشرِّع ليستفيد، فكل واحد يُشَرِّع وفي نفسه هوى، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحتْ لا تفِي ولا تغطي أمور الحياة، فكأن المشرِّع الأول لقصور علمه غابتْ عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا، فنظر في قانونه فلم يجد شيئاً يغطي هذه القضايا، فيقول: نُعدِّل القانون ونستدرك، ومعنى استدراك القانون أيْ أن هناك ما جهله ساعة شرَّع وقنَّن.

إذن: يُشترط في المُقنِّن ألَّا يكون مساوياً للمُقَنَّن له، وألَّا تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يستدرك عليه، وألَّا يكون منتفعاً بالتشريع، ولا يوجد ذلك في بشر أبداً، فأوضح الحق: اتركوا حضيض التشريع البشري، وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها.

فحين ينادي اللَّه: ﴿تَعَالَوْا﴾ فمعناها: ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى، لتأخذوا منه تقنيناتكم التي تحكم حركة حياتكم، فهو لا ينتفع بما شرَّع، بل أنتم الذين تنتفعون، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه، وهو خالق، هو أوْلَى أنْ يُشرِّع لكم.

لذلك قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كلَّ الأحكام، إيجاباً وسَلْباً، نَهْياً وأمراً فوضَّح لهم أنه يجب عليكم أنْ تتبعوا الصراط المستقيم، لتقُوا أنفسكم آثارَ صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى، وأول جنودها النار، فلتمشُوا على صراط اللَّه ومنهجه معتدلين، فلا تنحرفوا يمنة أو يسرة، لأن الميل يبعدكم عن الغاية.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أي: أقبلوا لتسمعوا منِّي التكليف الذي نزل لكم ممَّنْ هو أعلى منكم ولا تظلُّوا في حضيض الأرض وتشريعاتها، بل تسامَوْا وخُذُوا الأمر ممَّن لا هَوَى له في أموركم، وهو الحق الأعلى، فلا تضعوا لأنفسكم القوانين، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم، إنما تعالوا إلى اللَّه، وخُذوا منه سبحانه منهج حياتكم، فهو الذي خلقكم، وخلق لكم هذه الحياة.

اتركوا حضيض تشريع الأرض، وأقبلوا على رِفْعة تشريع السماء، ولا تهبطوا إلى مستوى الأرض، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث، لأن الذي يُشرِّع لكم بشرٌ أمثالكم، وإنْ كانوا حتى حَسَني النية، فهم لا يعلمون حقائق الأمور، فإنْ أصابوا في شيء أخطأوا في أشياء، وسوف يُضطرون لتغيير هذه التشريعات وتعديلها. إذن: فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى، لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم.

فشَرْع اللَّه يستوعب كلَّ نواحي حياتك وأقضيتها، وهذه المواصفات لا تكون إلا عند الحق تبارك وتعالى وهو سبحانه أرحمُ بك من الوالدة بولدها، فلا يُشرِّع لك إلا ما يُصلحك، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع، كما نرى في تشريعات البشر للبشر.

لذلك قال الحق سبحانه في كتابه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وهذا توضيح لإرادة الحق سبحانه في تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيماني رابطةً يُوضِّحها قَوْل رسول اللَّه فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضُه بعضاً»(١).

وإياك أنْ تنظر إلى مُجترئ على غيرك بالباطل وتقف مكتوفَ اليدين، لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعَى له سائر الأعضاء بالسهر والحُمى، فإنْ قتل إنسانٌ إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقفَ العاجز فهذا إفساد في الأرض؛ لذلك يجب أنْ يقابل المجتمعُ مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة، بل كأنه قَتْلٌ للناس جميعاً ما لم يكُنْ قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض.

ويكمل الحق سبحانه الشقَّ الثاني من تلك القضية الإيمانية ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وهذه هي الوحدة الإيمانية فمَنْ

---

(١) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمنُ للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضاً» وشبَّك رسولُ اللَّه بين أصابعه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤٦)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٨٥).

يعتدي على نفس واحدة بريئة كمَنْ يعتدي على كل الناس، والذي يُسعف إنساناً في مَهْلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

وفي التوقيع التكليفي يكون التطبيقُ العملي لتلك القاعدة، فالذي يقتل بريئاً عليه لعنة اللَّه وغضبه ويُعذِّبه اللَّه، وكأنه قتل الناس أجمعين، وإنْ نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد.

وسبحانه وتعالى يريد ألَّا يستقبل المجتمع الإيماني مجترئاً بباطل على حق، إلَّا أنْ يقف كل المجتمع أمامه، فلا يقف المُعتدَى عليه بمفرده؛ لأن الذي يُجرِّئ أصحاب الشر هو أنْ يقول بعضُ الناس كلمة «وأنا مالي».

و«الأنانمالية» هي التي تُجرِّئ أصحاب الشرور، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة: الثور الأسود، والثور الأحمر، والثور الأبيض، فقد احتال أسدٌ على الثورين الأحمر والأسود، فَسَمحَا له بأكل الثور الأبيض، واحتال الأسد على الثور الأسود، فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر، وجاء الدور على الثور الأسود، فقال للأسد: أُكِلْتُ يوم أُكِل الثورُ الأبيض.

كأن الثور التفت إلى أن «أنانماليته» جعلتْه ينال مصرعه، لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه، وها هو ذا الحديث النبوي الشريف الذي يمثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها:

عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم في حدود اللَّه والواقع فيها كمثَلِ قوم استهموا على سفينة فصار بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خُرْقاً ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعاً»[(١)].

كذلك مَثَل القائم على حدود اللَّه ومَثَل الواقع فيها، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا: لا تنظر إلى أن نفساً قتلتْ نفساً بغير حَقٍّ، ولكن انظر إليها كأن القاتلَ قتل الناسَ جميعاً؛ فالناسُ جميعاً متساوون في حق الحياة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٦٨) والبخاري في صحيحه (٢٤٩٣) والترمذي في سننه (٢١٧٣) عن النعمان بن بشير. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وما دام القاتل قد اجترأ على واحد، فمن الممكن أنْ يجترئَ على الباقين أو أن يكون فِعْله أُسْوةً لغيره، وما دام قد استنَّ مثل هذه السُّنة، سنجد كل مَنْ يغضب مِنْ آخر يقتله، وتظل السلسلة من القَتَلة والقَتْلى تتوالى.

وقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٢]، فيه من الاحتياط والدقة والقيد، فلو كان التشريع تشريعاً بشرياً لمرَّتْ عليه هذه المسألة، ولاستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل، ولكن المشرّع الأعلى سبحانه لا يستدرك.

فكأن مَنْ قتل نفساً بنفس، أو بفساد في الأرض لا يُقال عنه: إنه قتل الناس جميعاً، بل أحيا الناسَ جميعاً؛ لأن التجريم لأيِّ فعل يعني مجيء النص الموضِّح أن هذا الفعلَ جريمةٌ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة.

لذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، وللقصاص في الإسلام حِكَمٌ عالية، فليس الهدف منه أنْ يُضخِّم هذه الجريمة بل يهدف إلى حِفْظ حياة الناس كما قال اللَّه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فمَنْ أراد أنْ يحافظ على حياته فلا يُهدِّد حياة الآخرين.

وحينما يعطي ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ حقَّ القصاص لوليّ المقتول ويُمكِّنه منه تبرد ناره، وتهدأ ثورته، فيفكر في العفو وهو قادرٌ على الانتقام، وهكذا ينزع هذا الحكم الغِلَّ من الصدور، ويُطفئ نارَ الثأر بين الناس.

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عادة الثأر، يأتي القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولي المقتول، ويضع نفسه بين يديه معترفاً بجريمته: ها أنا بين يديك اقتلني وهذا كفني.

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق ووليّ الدم، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام، دين الوسطية والاعتدال، هذا العفو من وليّ الدم أداةُ بناء، ووسيلةُ محبة، فحين نعطيه حقَّ القصاص، ثم هو يعفو، فقد أصبحتْ حياةُ القاتل هَبةً من وليِّ الدم، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه، وهذا جميلٌ يحفظه أهلُ القاتل، ويقولون: هذا حقن دم ابننا.

فمقصود الإسلام هو المحافظة على الأرواح فلا يعتدي أحدٌ على أحد، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وحُكْم القصاص يجعل الإنسانَ حريصاً على نفسه، ويمنعه أنْ يُقدِمَ على القتل، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أنْ يقتصَّ منه، فإنْ أخذتنا الشهامة وتشدَّقنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة، وعارضنا إقامةَ الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب في إعدام الملايين، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات فكل مَن اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله؛ لأنه لا يوجد رادع يردعه عن القتل.

إذن: لكي نمنع القتل لا بدَّ أن ننفذ حكم اللَّه ونقيم شرعه ولو على أقرب الناس، لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى فقط، بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا، ويحمي سلامة مجتمعنا.

لذلك، جعل الحق سبحانه تنفيذ هذه الأحكام علانيةً أمام الجميع، وعلى مَرْأىً ومَسْمع المجتمع كله، ليعلموا أن أحكام اللَّه ليستْ شفوية، بل هي تُطبق أمامهم، وصدق اللَّه تعالى حين قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، ولا بُدَّ أنْ نستقبل أحكام اللَّه بفهم واعٍ ونظرة متأملة، فليس الهدف من تشريع اللَّه للقِصَاص كثرة القتل، إنما الهدفُ ألَّا يقع القَتْل، وألَّا تحدث هذه الجريمة من البداية.

فحين يخبرك الحق سبحانه أنك إنْ قتلتَ فسوف تُقتل، فهو يحمي حياتك وحياة الآخرين، وليس لدى الإنسان أغلى من حياته، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة، وقتل من أجلها مَنْ قتل؛ لأنه ربما خدش عِزَّته أو كرامته وربما لأنه عدو له أقوى منه.

ولا شكَّ أن حياته أغلى من هذا كله، فحين نقول له: إنْ قتلتَ ستُقتل، فنحن نمنعه أن يُقدم على هذه الجريمة، ونُلوِّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة ولذلك قالوا: القَتْل أَنْفي للقَتْل.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وهذا نداءٌ لأصحاب الأفهام والعقول الواعية، ليس القصاص

كما يظن البعض بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء.

ويجب أنْ تكون عندنا يقظةُ استقبال لأحكام اللَّه؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم، ويجب أيضاً أنْ ننظر إلى حكم القصاص نظرةً موضوعية، لأنه كما حمى غيري من قَتْلي له حماني أيضاً من قَتْل غيري لي، وما دامتْ المسألة: لك مثل ما عليك، وحظُّك منها كحظِّ الناس جميعاً فلماذا الاعتراض؟

وهذا نلاحظه في أمر السرقة أيضاً، فحينما يقول لك: لا تسرق، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك، والذي يتأمل هذه الحدود يجدها في صالح الفرد، لأنها تقيِّد حريته وهو فرد واحد، وتُقيِّد من أجل حرية المجتمع كله.

إن في تشريع القصاص استبقاءً لحياتكم؛ لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئاً، وستقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتْل، فكأنكم حقنتم دماءكم، وذلك هو التشريع العالي العادل.

وفي القصاص حياةٌ؛ لأن كلَّ واحد عليه القصاص، وكل واحد له القصاص، إنه التشريع الذي يخاطب أصحاب العقول وأُولي الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام، أما غير أُولي الألباب فهم الذين يجادلون في الأمور دون أنْ يعرفوا الجوهرَ منها، فلولا القصاص لَمَا ارتدع أحدٌ، ولولا القصاص لغرقتْ البشريةُ في الوحشية.

إن الحكمة من تقنين العقوبة ألَّا تقعَ الجريمة، وبذلك يمكن أنْ تتوارى الجريمة مع العقوبة، ويتوازن الحقُّ مع الواجب، إن عدل الرحمن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها، وأنْ يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا.

فإياكم أن تجترئوا على دماء الناس ولا على حياتهم.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أحكام وعقوبات القاتل، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

وضع التشريع الإسلامي للقاتل عن سبق إصرار وترصُّد عقاباً هو القتل وبذلك يحمي التشريعُ الحياةَ ولا ينمي القتل بل يمنع القتل، فإذا ما اجترأ إنسانٌ على إنسان ليُنهي حياته في غير حرب إيمانية شرعية فماذا يكون الموقف؟

يقول التشريع: إنه يقتل، وكان يجب أن يكون في بالك ألَّا تجترئ على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك، ولكن إن أنت فعلتَ خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل، فماذا يكون الأمر؟

صحيح أن الأمر وقع خطأ ودون قصد أو تعمُّد، ولكن حياة هذا الإنسان الذي أزهقتَ روحه لها ارتباطاتٌ شتَّى في بيئته الإيمانية العامة، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كعائلته، العائلة له، أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع، فكم دائرة إذن؟

عدة دوائر: دائرة إيمانية عامة، ودائرة الأهل في عمومها الواسع، ودائرة الأسرة، ودائرة خصوصية الأسرة في الأصل والفرع. وحين تُنهي حياة إنسان في البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بنقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج اللَّه ومفيد في حركته لأن الدائرة الإيمانية فيها نفعٌ عام، وكل دائرة من هذه الدوائر لها نفعٌ خاص بها.

فإذا جاء خبرُ موت أحد الناس في مجلس يجلسون فيه، تجد كلَّ واحد منهم سينفعل بالقدر الذي يصله ويربطه بمَنْ مات، فواحدٌ يقول: يرحمه اللَّه. وثانٍ يتساءل بفزع: كيف حدث ذلك؟ وثالثٌ يبكي بُكاء مُرّاً. ورابع يبكي جارياً ليرى الميت.

فالخبر واحد والانفعالات متعددة حتى أولاده تجد انفعالاتهم مختلفة، فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذي يدرس أو البنت التي ما زالت تتلقى التعليم عن الابنة التي تزوجت ولها أسرة.

فعندما يُفجع المجتمع في واحد فالهزَّة تكون على قدر نفعه وتأثيره فيمن حوله وارتباطهم به، فعندما يُفاجأ الناسُ بواحد يُقتل عن طريق الخطأ، فالفاعل معذور، ولكن عذره لم يمنع أنه قد تعدَّى بفعله، وأن الآخر قد قُتل؟

فالأثر قد وقع، ولأنه قَتْلٌ خطأ فلن يكون هناك قصاصٌ من القاتل، ولكن عليه أن يدفع ديةً، هذه الدية تُوزَّع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته.

فبالدية يتم علاجُ الأثر الحادث عن القتل الخطأ، وهي بحكم الشرع تدفعها العاقلة بشرط ألَّا تُؤخذ من الأصول والفروع، فمن أجل إشاعة المسؤولية فالقاتل لا يدفعها ولكن تدفعها العاقلة، لأن العاقلة إذا ما علمت أن مَنْ يجني من أهلها جناية وأنها ستتحمل معه فإنها تُعلِّم أفرادها فنَّ صيانة حقوق غيرهم لأن كل واحد منها سيدفع وبذلك يحدث التوازن في المجتمع.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢]، لكي تصنع البسط في نفوس أهله ليعقب القبض الواقع عليهم نتيجة خبر القتل ولذلك نجد أسرة قد فُجِعَتْ في أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض، مما يدل على أن في ذلك شيئاً من السَّلْوَى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض.

ولو كانت المسألة مَزْهُوداً فيها لقالوا: «نحن لا نريد ذلك» ولكن ذلك لا يحدث، فنجد الذي فقد حياة حبيب لا يظل في حالة حزن ليفقد حياة نفسه.

بعد ذلك يريد الحقُّ سبحانه أن يشيع التعاطف بين الناس، فإذا قال أهل القتيل لأهل القاتل: نحن لا نريد دية، لأن مصيبتكم في القتيل مثل مصيبتنا فيه وكلنا إخوة، فما مردود هذا على المجتمع؟

الذي يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤديه الدية. إذن: فهو تربيبٌ للدِّية، فساعة يعرف الطفل في العائلة أنه كان مطلوباً منه دية لأن أباه قد قتل، وأن أهل القتيل قد عَفوْا فلم يأخذوا الدية، هذا الطفل سيعرف عندما يشبّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتجٌ من هذا العفو وهذه العفة، فيحدث الود.

إذن: الحق سبحانه يريد أنْ يُربِّب إشاعة المودة والصفاء والنفعية، فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فينتفع، وإنْ لم

يأخذها فهو ينتفع أكثر، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

وهنا شيء آخر غير الدِّيَة وهو ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وهنا قد نسأل: وماذا يستفيد أهل المجني عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة؟ هل يعود ذلك على أهل القتيل ببَسْط في النفعية؟

قد لا تفيدهم في شيء لكنها تفيد المجتمع، لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأَمَة هو مملوكٌ لسيده والسيد يملك حركة العبد، ولكن عندما يكون العبد حُراً فهو حُرُّ الحركة، فحركة العبد مع السيد محدودة، وفي حريته حركةٌ مفيدة للمجتمع.

وكانت تصفية الرِّقِّ من أهداف الإسلام، لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد، وبعض الناس يدَّعون أن الإسلام جاء بالرِّقِّ وأقرَّه. ونقول: لم يأت الإسلام بالرق، لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية، وجاء الإسلام بالعتق ليصفي الرقَّ، فجعل من فكِّ الرقبة كفارةً لبعض الذنوب، وجعل من مصارف الزكاة عتقَ العبيد.

فإذا ما قتلَ مؤمنٌ مؤمناً خطأً في بيئة إيمانية فحُكْمه ديةٌ مُسَلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فحكم هذه الحالة تحريرُ رقبة مؤمنة، وذلك للتعويض الإيماني فينطلق عبدٌ كان محدودَ الحركة، لأن هناك مَنْ مات وانتهت حركته، وفي هذا تعويضٌ للمجتمع عندما تشيع حركة العبد. وماذا نفعل في الدية؟ لا يأخذون الدية لأن الدية موروثة وهم من الكفار، وليس بين الكفار والمسلمين توارثٌ أي: فليس هنا دية. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.. [النساء: ٩٢]. فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من العهود فلا بُدَّ من الوفاء، هذا الوفاء يقتضي تسليمَ دية لأهله، لأن هذا احترامٌ للعهد، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.. [النساء: ٩٢].

أي: فمَنْ لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشرائها فصيام الشهرين بكل

أيامهما، فلا يفصل بينهما إلا فاصل مُعذر كأن يكون القاتلُ ـ دون قصد ـ على مرض أو على سفر، وبمجرد أن ينتهي المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم.

أما القتل العمد، فقد قال الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

يشِّنع لنا الحقُّ سبحانه جريمة القتل العمد، فجزاؤه جهنم وليس له كفارة أبداً، لأن التعمُّد يعني أن القاتل قد عاش على فكرة أن يقتل، لذلك يقال في القانون: «قتل عَمْد مع سَبْق الإصرار».

أي: أن القاتل قد عاش القتل في تخيُّله ثم فعله، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الديني، وهذا يعني أن اللَّه قد غاب عن باله طوال مدة التحضير للجريمة، وما دام الإنسانُ قد غاب باله عن اللَّه فاللَّه يُغيِّبه عن رحمته.

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب: جزاء جهنم، خلود في النار، غضب من اللَّه، لعنة من اللَّه، إعداد من اللَّه لعذاب عظيم.

وهنا وقفة وقف العلماء فيها: هل لهذا القاتل توبة؟ واختلف العلماء في ذلك، فعالم يقول: لا توبة لمثل هذا القاتل. وعالم آخر قال: لا، هناك توبة. وجاء ابن عباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله: أللقاتل عمداً توبة؟ قال ابن عباس: لا. وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن عباس: أللقاتل عمداً توبة؟ فقال ابن عباس: نعم.

فقال جلساؤه: كيف تقول ذلك وقد سبق أنْ قلت: لا. واليوم تقول: نعم؟ فقال ابن عباس: سائلي أولاً كان يريد أنْ يقتل عمداً. أما سائلي ثانياً فقد قتل بالفعل، فالأول أرهبته، والثاني لم أُقنِّطْه من رحمة ربه.

وتشريع التوبة هو تضييقٌ شديد لنوازع الشر، فلو لم يشرع اللَّه التوبة لكان مَن ارتكب ذنباً يعيث في الأرض بالفساد، فحين شرع اللَّهُ التوبةَ عصم المجتمع من الأشرار.

والحق سبحانه عليم حكيم، عليم بالتقنيات فشرع التوبة لعلمه جلَّ شأنه

بأنه لو لم يشرع التوبة لَكَان المذنب لمرة واحدة سبباً في شقاء العالم، لأنه حينئذ يكون يائساً من رحمة اللَّه.

وهو سبحانه حكيم، فإياك أنْ يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضاً، وهذا مطلق الحكمة.

# أنتَ عندي كبعض ملائكتي

**عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:**

«ما من شاب يدعُ لذةَ الدنيا ولهوها، ويستقبل بشبابه طاعة اللَّه إلا أعطاه اللَّهُ أجر اثنين وسبعين صدِّيقاً، ثم قال:

**يقول اللَّه تعالى:**

**أيها الشاب.. التارك شهوتَه لي.. المبتذل شبابهُ لي.. أنت عندي كبعض ملائكتي»**(١).

يصف الحقُّ سبحانه عباده، وخاصة الشباب منهم بالعِفَّة والاستعفاف والبُعْد عن مواضع الشبهات، ويصبرون عن شهواتهم، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

فالإنسان الذي كرَّمه اللَّه وجعله خليفةً له في الأرض أراد له الطُّهْر والكرامة، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون اللَّه، فلا يُدخِل في عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون، لأن اللَّه تعالى يريد أن يبني المجتمع المؤمن على الطُّهر، ويبنيه على عناية المُربِّي بالمُربَّى.

فالحق تبارك وتعالى جعل له خليفةً في الأرض لتظهر عليه سماتُ قدرته تعالى وصفات كماله، فاللَّه تعالى قادر، اللَّه عالم، اللَّه حكيم، اللَّه غنيٌّ، اللَّه رحيم، اللَّه غفور.

وهو سبحانه يعطي من صفاته ويفيض منها على خَلْقه وخليفته في أرضه بعضاً من هذه الصفات، فيعطيك من قدرته قدرة، ومن رحمته رحمة، ومن غَنائه غِنىً، لكن تظل الصفة في يده تعالى، إنْ شاء سلبها، أَلَا ترى القويَّ قد يصير ضعيفاً، والغني قد يصير فقيراً.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٣٨)، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٥/ ح ٤٣١٠٦).

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليستْ ذاتية فينا، وأن هذه الهِبَات ليست أصلاً عندنا، إنما هي فَيْض من فيض اللَّه، وهِبَة من هِبَاته سبحانه؛ لذلك علينا أنْ نستعملها وفق مراده تعالى، فإنْ أعطاك ربُّك القدرةَ، فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك، أعطاك العلم لتنشره على الناس، أعطاك الغنى لترعى حقَّ الفقير.

إذن: فالحق تبارك وتعالى يريد من خليفته في أرضه أنْ يكون جماعاً لصفات الكمال التي تُسعِد الخَلْق بآثار الخالق فيهم، وهذه هي الخلافة الحقة.

فالحق تبارك وتعالى يريد لخليفته في أرضه أنْ يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية، وأوَّل هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاءً سليماً في وضح النهار، لينتج عن هذا اللقاء نَسْل طاهر جدير بخلافة اللَّه في أرضه.

فلا بُدَّ أنْ لا يلتقي رجل وامرأة إلا على نور من اللَّه، وهدى من شريعته الحكيمة؛ لأنه عزَّ وجلَّ هو خالق الإنسان، وهو عالم بما يُصلحه، وهو خالق ذراته، ويعلم كيف تنسجم هذه الذرات مع بعضها البعض، وهو سبحانه خالق مَلَكات النفس، ويعلم كيف تتعايش هذه الملَكات ولا تتنافر.

فمن الطبيعي أنْ يضطرب الكون وتتصارع فيه مَلَكات البشر إنْ أردتَ أنْ تنشئ خليفة في الكون على غير مراد اللَّه وعلى غير مواصفات الحق، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إنْ جاء في الظلام؟

فلن تستقيمَ هذه المسألة إلا حين يأتي الخليفة وفق مواصفات ربه عزَّ وجَلَّ، وأنْ يلتقيَ الزوجان على ما شرع اللَّه في وضح النهار، لا أنْ يندسَّ كل منهما على الآخر في ظلمة الإثم، فيحدث المحظور الذي تختلط به الأنساب، ويتفكك رباط المجتمع.

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أنْ يشكّ في نِسْبة ولده إليه، وأنْ تعتصره هذه الفكرة، فيهمل ولده وفلذة كبده، وينفق هنا وهناك ويحرمه، على خلاف النسل الطاهر حيث يتلهَّف الأبُ على ولده، ويجوع ليشبع، ويتعرّى ليلبس.

فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين في أُبوَّة صحيحة شرعية، وأمومة صحيحة شرعية، اجتمعا على نور اللَّه.

ولك أن تُجري مقارنة بين امرأة حملت سفاحاً، وأخرى حملت حملاً شرعياً طاهراً، ستجد الأولى تحمله على مَضَض وكُره، وتود أن تتخلص منه، وهو جنين في بطنها، فإن تحاملت على نفسها إلى حين ولادته تخلصتْ منه في ليلتها، ولو بإلقائه على قارعة الطريق.

أما صاحبة الحمل الشرعي فتتلهف على الولد وإن تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء، فإنْ أكرمها اللَّه بالحمل طارت به فرحاً وفخراً وحافظت عليه في مَشْيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع فتتحمل آلامه راضيةً، ثم تحتضنه وترضعه وتعيش حياتها في خدمته ورعايته.

فاللَّه يريد أن يأتي خليفته في أرضه من إخصاب طاهر على أعين الناس جميعاً، وفي نور اللَّه المعنوي، يريد للزوج أن يأتي من الباب في ضوء هذا النور، لا أن يتلصصَ في الظلام من باب الخدم.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

الإنسان منا حين يُرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً، ويُؤثره على نفسه، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها في فم ولده، ويسعى جاهداً ليُوفِّر له رفاهية العيش، ويُؤمِّن له المستقبل المَرْضي.

لكن هذا النظام التكافلي الذي جعله الحق سبحانه وتعالى عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دبَّ الشكُّ إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه، فتتحول حياته إلى جحيم لا يُطاق، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به، لأنه طَعْنٌ في ذاته هو.

لذلك يحذرنا الحق تبارك وتعالى من هذه الجريمة النكراء، ليحفظ على الناس أنسابهم، ويطمئن كلُّ أب إلى نسبة أبنائه إليه، فيحنو عليهم ويرعاهم ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد قال النبي ﷺ: «مَن حام حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه»[١].

فالحق سبحانه خالق الإنسان ـ وهو أعلم به ـ لا يريد له أن يقترب من المحظور، لأن له بريقاً وجاذبية، كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها، لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب، وفَرْق بين الفعل وقُربان الفعل، فالمُحَرَّم المحظور هنا هو الفعل نفسه، فلماذا إذن حرَّم اللَّه الاقتراب وحذَّر منه؟

نقول: لأن اللَّه تعالى يريد أن يرحم عواطفك في هذه المسألة بالذات، مسألة الغريزة الجنسية، وهي أقوى غرائز الإنسان، فإن حُمْتَ حولها تُوشك أن تقعَ فيها، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلمُ لك.

وحينما تكلم العلماء عن مظاهر الشعور قسَّموها إلى ثلاث مراحل: الإدراك، ثم الوجدان، ثم النزوع.

فلو فرضنا أنك تسير في بستان، فرأيتَ به وردة جميلة، فلحظة أن نظرت إليها، هذا يُسمَّى [الإدراك] لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر، ولم يمنعك أحدٌ من النظر إليها والتمتُّع بجمالها.

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرُها واستقرَّ في نفسك حُبُّها، هذا يُسمَّى [الوجدان] أي: الانفعال الداخلي لمَا رأيتَ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا [نزوع] أي: عمل فعل.

ففي أيِّ مرحلة من هذه المراحل الثلاث يتحكم الشرع؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع، ولا يمنعك من الإدراك، أو من الوجدان، إلا في هذه المسألة [مسألة الغريزة الجنسية] فلا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، فهي مراحل ملتحمة ومتشابكة، بحيث لا تَقْوَى النفسُ البشرية على الفَصْل بينها.

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولد إعجاباً

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١)، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير، ولفظه: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى اللَّه محارمه».

وميلاً ثم عشقاً وغريزة عنيفة تدعوه أن تمتدَّ يده ويتولد النزوع الذي نخافه، وهنا إما أن ينزع ويُلبي نداء غريزته، فيقع في المحرم، وإما أن يعفَّ ويظل يعاني مرارة الحرمان.

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر، لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب، بل حرَّم كل ما يؤدي إليه بداية من النظر، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

لأنك لو أدركتَ وجدتَ، ولو وجدتَ لَنزعتَ، فإن أخذتَ حظك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعاني عِشقاً لن تناله، وليس لك صبر عنه.

إذن: الأسلم لك وللمجتمع، والأحفظ للأعراض وللحُرمات أن تغضَّ بصرك عن محارم الناس، فترحم أعراضهم، وترحم نفسك.

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان، فيغشّ الإنسان نفسه بالاختلاط المُحرَّم، وإذا ما سُئلَ ادعى البراءة وحُسْن النية، وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعةً للمخالطة والمعاشرة، وهو لا يدري أنه واهمٌ في هذا كله، وأن خالقه سبحانه أدرى به وأعلم بحاله، وما أمره بغضِّ بصره إلا لمَا يترتب عليه من مفاسد ومضارّ، وإما تعود على المجتمع، أو عليه نفسه.

لذلك قال ﷺ: «النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، مَنْ تركها من مخافتي أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[(١)].

فمسألة غَضِّ البصر التي يأمرنا بها ربُّنا عزَّ وجلَّ هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ويسدّ الطريق دونها، فهذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها اللَّه عز وجل وألزمنا بها، إنما هي لمنع جريمة الزنا البشعة؛ لأن النظرَ أولُ وسائل الزنا، وهو البريدُ لما بعده.

ألا ترى شوقي رحمه اللَّه حين تكلم عن مراحل الغَزَل، قال:

---

(١) الحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٤) عن حذيفة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه قال الذهبي في تلخيصه: «إسحاق وَاهٍ، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعَّفوه».

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلامٌ فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءٌ

فالأمر بغَضِّ البصر ليسدّ منافذ فساد الأعراض، ومنع أسباب تلوث النسل؛ ليأتي الخليفةُ للّه في الأرض طاهراً في مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحدٌ على أحد، بأن له نسباً وشرفاً، والآخر لا نسبَ له.

ذلك ليطمئنَ كلُّ إنسان على أن مَنْ يليه في الخلافة من أبناء أو أحفاد، جاءوا من طريق شرعيٍّ شريف، فيجتهد كلُّ إنسان في أنْ يُنشِّئَ أطفاله تنشئةً فيها شفقة وحنان ورحمة، لأنه واثقٌ أنه ولده ليس مدسوساً عليه، وأغلبُ الظنِّ أن الذين يهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون في نسبهم إليهم.

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضُمنَتْ له الصيانةُ الكافية، لئلا تشرُدَ منه غرائز الجنس، فيتعدي كل نظر على ما لا يحل له، لأن النظر بريدٌ إلى القلوب والقلوب بريدٌ إلى الجنس، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر.

وحفظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحله اللَّهُ وشرعه فلا أنيله لغير محلل له سواء كان من الرجل أو المرأة؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر والفتنة. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.. [النور: ٣٠]. يعني: أطهر وأسلم وأدعى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب مُحرماً، ويلج في أعراض الناس، وإما ألَّا ينزع فيكدر نفسه، ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق.

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يَقُلْ: لا تزنوا؛ لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها، فاحذر أن تجعل نفسك على مقربة منها؛ لأن مَنْ حامَ حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ودَعْكَ ممَّنْ ينادون بالاختلاط والإباحية؛ لأن الباطل مهما علا، ومهما كَثُرَ أتباعه فلن يكون حقاً في يوم من الأيام.

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه، وهو ابن خالها، وهما تربَّيَا في بيت واحد، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تغير من وجه الحرام شيئاً، فطالما أن الفتاة تحلّ لك، فلا يجوز لك الخلوة بها.

في الحديث النبوي: «لا يخلون رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطانُ ثالثهما»[(١)].

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ١١٤) من حديث ابن عمر، وقال: صحيح على شرط =

إذن: ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر، وما حرَّم الخُلوة في ذاتها، ولكن حرَّمهما؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، أبلغُ في التحريم وأحوطُ وأسلمُ من: لا تزنوا.

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

هذا النصُّ الكريم جعلنا نبتعد عن الأماكن التي فيها الخمور، فلا نجلس مع مَنْ يشربونها، ولا نتاجر فيها، حتى لا نقعَ في المعصية، فإذا رأيتَ مكاناً فيه خمر فابتعد عنه في الحال، حتى لا يُغريك منظرُ الخمر وشاربها بأن تفعلَ مثله، والحقُّ جلَّ جلاله يقول في المحرمات: لا تقربوا أي: اجتنبوا.. أي: لا تحوموا حولها؛ لأنها إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها.

واجتنابها يكون بألَّا تُوجد معه في مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق: اجتنبها. أي: لا تذهب إليها؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى مَنْ يشربون وهم مستريحون مسرورون، فقد تشربها، ولكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها وإغرائها.

ولذلك قلنا: إن الاجتناب أبلغ من التحريم، ولكن طلع علينا مَنْ يقول: ليس هناك نصٌّ في التحريم؛ لأنه لم يقُلْ: حُرِّمت عليكم، فهي مجرد موعظة ونصيحة.

ونقول: لو فهم معنى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ لَعَلِمَ أنها أقوى في التحريم من: حُرِّمت عليكم؛ لأن معنى حُرِّمت عليكم الخمر يعني: لا تشربوها. أما (فاجتنبوه) فيعني: ابتعدوا عنها كلية شرباً، أو بَيْعاً، أو شراء، أو نقلاً، أو حتى الجلوس في مجالسها.

---

= الشيخين. وأشار إليه الترمذي في سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥)، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

والحق سبحانه يقول عن الزنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والفاحشة هي الشيء الذي اشتدَّ قُبْحه، وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشةً؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين الذكر والأنثى، وقدَّر أن يكون منهما التناسلُ والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها، ومظلة لا يتم الزواج إلا تحتها، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً يأتيها مَنْ يأتيها؛ ليحفظ للناس الأنسابَ، ويحمي طهارةَ النسل، فيطمئن كلُّ إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده.

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القران الذي يجمعهما بكلمة اللَّه وعلى سنة رسوله ﷺ، وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها، أو يحاول الاقتراب منها أو ما شابه ذلك، ماذا سيكون موقفك؟ لا شكَّ أن نارَ الغيرة ستشتعل بداخلك، وربما تعرضتَ لهذا الشاب، وأقمتَ الدنيا ولم تُقعدها.

لكن، إذا ما طرقَ هذا الشابُّ بابك، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترحاب، وتسعد به، وتدعو الأهل، وتُقيم الزينات والأفراح. إذن: فما الذي حدث؟ وما الذي تغيَّر؟ وما الفرق بين الأولى والثانية؟ الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام؛ لذلك قيل: «جدعَ الحلالُ أنفَ الغيرة».

فالذي يغار على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يجهز ابنته، ويُسلمها بيده إلى زوجها، لأنهما التقيا على كلمة اللَّه، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب.

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة: زوَّجتك ابنتي. ويقول الزوج: وأنا قبلتُ. تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً، وتُحدث فيها انبساطاً وانشراحاً، لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتي للإنسان، ولها أثرٌ في انسجام ذراته، وفي كل قطرة من دمه.

ومن آثار كلمة اللَّه التي يلتقي عليها الزوجان، أنها تُحدث سيالاً بينهما، هو سيالُ الاستقبال الحسن، وعدم الضجر، وعدم الغيرة والشراسة، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء.

هكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسي ويسكن كلٌّ منهما للآخر، لأن

ذراتهما انسجمتْ وتآلفتْ، ويفرح الأهل ويسعد الجميع، وصدق رسول اللَّه ﷺ حين قال في وصيته بالنساء: «إنما استحللتم فُرُوجَهنَّ بكلمة اللَّه»[١].

وهذه الكلمة من اللَّه تعالى الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يُصلحه، ولك أنْ تتصوَّرَ الحال إنْ تمَّ هذا اللقاء فيما حرَّم اللَّه، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونَكَد، ومرارة لا تنتهي، ما بقيتْ فيهما أنفاسُ الحياة.

لذلك سماه القرآنُ فاحشةً، والدليلُ على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألَّا يُعرف، وأنْ تظلَّ جرائمه خلسة من المجتمع، وأن الذي يقترف هذه الفاحشة يكره أنْ تُفعلَ في محارمه، ويكفيها فحشاً أن اللَّه تعالى سماها فاحشةً، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانيةً أمام أعين الجميع.

وقد عالج رسول اللَّه ﷺ هذا الداء حينما أتاه شابٌّ يشتكي ضعفه أمام غريزته الجنسية، ويقول له: يا رسول اللَّه، ائذن لي في الزنا، والنبي ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه.

فكيف استقبل رسولُ اللَّه ﷺ هذا الشابَّ الذي جاءه يقول: يا رسول اللَّه إنني أصلي وأصوم، وأفعل كلَّ أوامر الدين إلا أنني لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة؟

هل نهره واعتبره شاذاً وأغلق الباب في وجهه؟ لا واللَّه، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية.

هذا الشاب ما جاء لرسول اللَّه إلا وهو كارهٌ لمرضه، وأول ظاهرة في العافية أنْ تعترفَ بمرضك، ولا تتكبَّر عليه، فإنْ تكبَّرت عليه استفحل واستعصى على العلاج.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) كتاب الحج ـ باب حجة النبي ﷺ (١٩) وفيه: «فاتقوا اللَّه في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان اللَّه، واستحللتم فروجهن بكلمة اللَّه، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإنْ فعلنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

اعتبر النبي ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرةً صحية في إيمانه لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ويجد لها شيئاً في نفسه، وانظر كيف عالجه ﷺ.

انظر إلى منهج الدعوة، كيف يكون؟ وكيف استلَّ رسول اللَّه ﷺ الداء من نفس هذا الشاب؟ فلم يزجره ولم ينهره ولم يُؤذه، بل أخذه وربَّت على كتفه في لطف ولين، ثم أجلسه وقال له: «يا أخا العرب، أتحبّ هذا لأمك؟ فانتفض الشاب وتغيَّر وجهه، وقال: لا يا رسول اللَّه، جُعلت فداك فقال: أتحبه لأختك؟ أتحبه لزوجتك؟ أتحبه لبناتك؟ والشاب يقول في كل مرَّة: لا يا رسول اللَّه، جُعلت فداك. ثم قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لزوجاتهم، ولا لبناتهم»، ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له: «اللَّهم نَقِّ صدره، وحَصِّن فَرْجَهُ».

وانصرف الشاب وهو يقول: لقد خرجتُ من عند رسول اللَّه وليس أكره عندي من الزنا، وواللَّه ما هممتُ بشيء من ذلك إلا وذكرتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي[(١)].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عن سبيل الفاحشة: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والسبيل هو الطريق المُوصِّل لغاية، وغايةُ الحياة أننا مُستخلفون في الأرض، خلقنا اللَّه لعمارتها والسعي فيها بما يُسعدنا جميعاً، ويعود علينا بالخير والصلاح، فإذا ضلَّ الإنسانُ وانحرف عمَّا رسمه له ربُّه أفسد هذه الخلافة، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها.

وأعتقد أن ما نشاهده الآن في بيئات الانحلال من الانحراف، وما امتدّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً، وساء طريقاً ومسلكاً، يقضي على سلامة المجتمع وأمنه وسعادته.

ويكفي أنك إذا خرجتَ من بيتك في مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية، وتخاف من شبح العدوى الذي يطاردك في كل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧) والطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١٩٠، ٢١٥) من حديث أبي أمامة، وفيه أن رسول اللَّه قال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه» فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء.

مكان، في الحجرة التي تدخلها، وفي السرير الذي تنام عليه، وفي دورة المياه التي تستعملها، الجميع في رعب وفي هلع، والإيدز ينتشر انتشارَ النار في الهشيم، وأصبح لا يَسْلم منه حتى الأسوياء الأطهار.

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجةً لخروج الإنسان عن منهج اللَّه خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها، فأحدث اللَّهُ لهم من الأمراض والبلايا بقدر فُجورهم وعصيانهم، وما داموا لم يأتوا بالحُسْنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين.

فالعالم كله الآن يباشر مشروعات عفة وطهارة، لا عن إيمان بشرع اللَّه، ولكن عن خوف وهلع من أمراض شتى لا ترحم، ولا تفرق بين واحد وآخر.

إذن: الزنا فاحشة وساء سبيلاً، وها هي الأحداث والوقائع تثبت صدق هذه الآية، وتثبت أن أيَّ خروج من الخلق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نكدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة.

لذلك يتوعد الحقُّ سبحانه وتعالى مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أنْ يفسدَ شرف الخلافة التي يريدها اللَّهُ طاهرة، ويُدنس النسل، ويُوغر الصدور بالأحقاد والعداوات، ويزرع الشكَّ في نفوس الخَلْق، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية، إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله.

وانظر إلى الإيدز الذي يهدد المجتمعات الآن، وهو ناتجٌ عن الالتقاء غير

الشرعي، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعداهما إلى الغير.
إذن: من صالح المجتمع كله أن نقيم حدَّ الزنا حتى لا يستشريَ هذا الداء.

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شرع اللَّه في مسألة الحدود، حين تقضي برجم الزاني المُحْصَن حتى الموت، ألَا يعلم هؤلاء أننا نُضحي بواحد لنحفظ سلامة الملايين في صحة وعافية؟ ألَا يرونَ ما يحدث مثلاً في وباء الطاعون الذي أعجز العلماء حتى الآن، ولم يجدوا له علاجاً، وكيف أن الشرع أمرنا إنْ نزل الطاعونُ بأرض ألَّا نذهب إليها، وأمر مَنْ فيها ألَّا يخرجوا

منها[١]، لماذا؟ لنحصرَ هذا الوباء حتى لا يستشريَ بين الناس.

كذلك الحال في مسألة الزنا؛ لأن الزاني لا يقتصر شرُّه عليه وحده، إنما يتعدَّى شرُّه إلى المجتمع كله، مع مراعاة أن الشرع فرَّق بين الزاني المُحْصَن وغير المُحْصَن، وكذلك الزانية، ففي الإحصان تتعدد الماءات في المكان الواحد؛ وقد سُئلنا في سان فرانسيسكو: لماذا أبحتُم تعدد الزوجات، ولم تبيحوا تعدد الأزواج؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة: لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال؟

قلتُ: اسألوهم، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً يعني: بيوت للدعارة؟ قالوا: نعم في بعض الولايات، قلت: فبماذا احتطتُم لصحة المجتمع وسلامته؟ قالوا: نُجري عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع، قلت: وهل هذا الكشف الدوري يستوعب الجميع؟ أم أنه مجرد عينات عشوائية.

إذن: من الممكن أن يتسرَّب المرضُ بين هؤلاء الشباب، وهَبْ أنك أجريتَ على إحداهن الكشف يوم الأحد مثلاً، وفي يوم الاثنين جاءها المرض، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أن يأتي الأحد القادم؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء.

ثم أتُجرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات؟ وهل اكتشفتم بينهم مثل هذه الأمراض؟ قالوا: لا. لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين.

قلت: إذن كان عليكم أن تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات، وأنها تأتي من تعدُّد ماءات الرجال في المكان الواحد؛ لأن لكل ماء سياله، وله ميكروبات تتصارع، إن اجتمعتْ في المكان الواحد ينشأ منها المرض.

لكن حين يكون للزوجة زوجٌ واحد، فلن نرى مثل هذه الداءات في المجتمع، ومن هنا يأتي دور الوازع الديني، فإن فُقد الوازع الديني فلا بُدَّ من

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: قال النبي ﷺ في الطاعون: «هو عذابٌ أو رجز أرسله اللَّه على طائفة من بني إسرائيل، أو ناس كانوا قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها عليه، وإذا دخلها عليكم فلا تخرجوا منها فراراً». أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٢٨) وكذا مسلم (٢٢١٨) كتاب السلام باب الطاعون (٣٢).

الوازع الحسِّي ليزجر مثل هؤلاء، ويُوقفهم عند حدود اللَّه رغماً عنهم، حتى وإن لم يكونوا يؤمنون بها.

إذن: هذه أقضية ومشاكل وداءات حدثت للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور، وبقدر ما انتهكوا من حرمات اللَّه، وانظر مثلاً لمن يُضطر للسفر إلى مثل هذه البلاد، كم يكون حذراً مُفزَّعاً حين يقيم مثلاً في فندق، فيأخذ أدواته الشخصية، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه.. الخ كل هذه الاحتياطات.

فالشرع حين يأمر بقتل الزاني أو الزانية إنما فعل ذلك ليسلم المجتمع بأَسْره، لذلك منع الحق سبحانه الرأفة بالزاني والزانية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فالرأفة لا تكون في حدود اللَّه، ارأفوا بهم في مسائلكم الخاصة فيما بينكم، وعجيبٌ أن تدَّعوا الرأفة في مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس، وتنتهكون حُرماتهم، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب.

فأين الرأفة إذن؟

إذن: لا مجالَ للرحمة وللرأفة في حدود اللَّه، فلسْنا أرحمَ بالخلق من الخالق، فلا تأخذكم بهم رأفة، لأن الرأفة قد تُغري بالذنب، فنحن بالعقوبة نحمي المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم، فلو أخذتكم الرحمة في هذه اللحظة فأنتم تشجعون الجريمة.

وإذا كنتم تريدون الرأفة والرحمة حقاً بهذا المجتمع وبأفراده، فلتلزموا أمر الحق سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن مسألة حفظ الفروج، ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب، أراد أن يتكلم عن هؤلاء الرجال والنساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج، ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه؛ لأن المشرِّع لا بدَّ أن يستولي بالتشريع على كل ثغرات الحياة، فلا يعالج جانباً ويترك الآخر.

والأيامى جمع أيِّم، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له، والأيم من

النساء مَنْ لا زوجَ لها، والمراد أمر أولياء الأمور ومَن عندهم رجال ليس لهم زوجات، أو نساء ليس لهن أزواج: عَجِّلوا بزواج هؤلاء، ويسِّروا لهم هذه المسألة، ولا تتشددوا في نفقات الزواج حتى تعفّوا أبناءكم وبناتكم، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة.

وفي الحديث الشريف: «إذا جاءكم مَنْ ترضوْنَ دينه وخلقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكُنْ فتنة في الأرض وفساد كبير»[(١)].

ومع ذلك ففي مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التي تعرقل زواج الشباب، أخطرها المغالاة في المهور وفي النفقات، والنظر إلى المظاهر.. إلخ، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لأولياء الأمور: يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال، ومَهِّدوا لهم سبيلَ الإعفاف.

وقد أعطانا القرآنُ نموذجاً لمَا ينبغي أن يكون عليه وليُّ الأمر، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [القصص: ٢٧].

ذلك لأن موسى عليه السلام سيكون أجيراً عنده، وربما لا يتسامى إلى أنْ يطلب يد ابنته؛ لذلك عرضها عليه، وخطبه لها، وشجَّعه على الإقبال على زواجها، فأزال عنه حياء التردد، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤاً، فلا يتردد في إعفافها.

وفي الأمثال نقول: (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك)؛ ذلك لأن كبرياء الأب يمنعه أن يعرضَ ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح ـ وإنْ كان القلة يفعلون ذلك ـ وهذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة، فكثيراً ما نجد الشاب سويَّ الدين، سويَّ الأخلاق، لكن مركزه الاجتماعي ـ كما نقول ـ دون مستوى البنت وأهلها، فيتهيَّب أن يتقدَّم لها فيُرفض.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٠٨٤) وابن ماجه في سننه (١٩٦٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ورجح الترمذي إرساله، ثم أخرجه (١٠٨٥) من حديث أبي حاتم المزني وحسَّنه.

وفي هذه الحالة، على الأب أنْ يُجرِّئَ الشاب على التقدُّم، وأن يُلمِّح له بالقبول إن تقدَّم لابنته، كأنْ يقول له: لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن، وألف بنت تتمناك؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع.

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾، فهذا شيء آخر، وأدب عَالٍ من العارض، ومن المعروض عليه، وفي مجتمعاتنا كثيرٌ من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجُرْأة، وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

ففي حالة إذا لم ننكح الأيامى ولم نُعنهم على الزواج ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق سبحانه العلاجَ المناسب وهو الاستعفاف، وقد طلب اللَّه تعالى من المجتمع الإسلامي ـ سواء تمثَّل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام ـ أن ينهضَ بمسألة الأيامى، وأنْ يُعينهم على الزواج، فإنْ لم يَقُم المجتمع بدوره، ولم تكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرةٌ ذاتية على الزواج فليستعفف كلٌّ منهم حتى يُغنيهم اللَّه.

أي: بأن يحاول كلٌّ منهم العفاف، ويطلبه ويبحث عن أسبابه، بل يجاهد أنْ يكون عفيفاً، وأول أسباب العفاف أنْ يغضَّ بصره حين يرى، فلا يوجد له مُهيِّج ومثير، فإنْ وجد في نفسه فتوة وقوة، فعليه أن يُلجمها ويضعفها بالوسائل الشرعية، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءةَ ـ يعني: نفقات الحياة الزوجية ـ فليتزوج، ومَنْ لم يَجد فعليه بالصوم، فإنه له وجاءٌ[(١)]»[(٢)].

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة، ويهدئ من شراسة الغريزة؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يُقيم أَوْدَهُ، ولا يبقى في بدنه ما يثير الشهوة، كما جاء

---

(١) الوجاء: هو أن تُضرب الخصيتان ضربة شديدة تُذهب شهوةَ الجماع وينزل منزلة الخَصْي. وقال ابن منظور في (اللسان ـ مادة: وجأ) أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٦٥) ومسلم في صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

في الحديث الشريف: «بحَسْب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صُلبه»[١].

أو: أن يُفرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذي يشغله ويستنفد جهده وطاقته، التي إنْ لم تُصرف في الخير صُرِفَتْ في الشر، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ويثق بنفسه، ويكتسب الحلال الذي يُشجعه مع الأيام على الزواج وتحمُّل مسؤولياته.

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لعبد من عباده الذين عصموا أنفسهم من الوقوع في هذه الفحشاء، فحدَّثنا الحق سبحانه عن ذلك النبي الشاب يوسف عليه السلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فيوسف عليه السلام راودتْه سيدة القصر عن نفسه، ومن قبل كان يوسف يخدمها، وكانت تنظر إليه كطفل، أما بعد أن بلغ أشُدَّه فقد اختلف الأمر، وهو لن يستطيع الفكاك؛ لأنه في بيتها وهي مُتمكِّنة منه، فهي سيدة القصر.

فالأمر مجموعٌ عليه من عدة جهات، فهو قد تربَّى في بيتها، وهي التي تتلطف وترقّ معه، وفَهِمَ هو مرادها.

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب، فقصورُ العظماء بها أكثر من باب، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب، بل يجتاز الإنسانُ أكثرَ من باب ليلقي العظيم الذي جاء ليقابله، فامرأة العزيز قد غلَّقتِ الأبواب؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْحَ ما يفعل، ويحاول أنْ يستر فعله، وهي قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر، وحدثتِ المراودة وأخذتْ وقتاً، لكنه فيما يبدو لم يستجب لها. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾.. [يوسف: ٢٣]، أي: أنها انتقلت من مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل، بأنْ قالت: تهيأتُ لك، وكان ردّ يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

والمَعاذ هو مَنْ تستعيذ به، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذي في سننه (٢٣٨٠) عن المقدام بن معد يكرب وتمامه: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمنَ صلبه، فإنْ كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه».

الحدث الذي تمرُّ به، عَلَّكَ تجد مَنْ ينجدك، فكأن المسألة قد عزَّتْ عليه، فلم يجد مَعَاذاً إلا اللَّه.

ولا أحدَ قادرٌ على أنْ يتصرفَ هكذا إلا مَنْ حرسه اللَّهُ بما أعطاه له من الحكمة والعلم، وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وأعطانا هذا القولُ معنيين اثنين:

الأول: أنه لم يوافق على طلبها بعد أنْ أوضحتْ ما تريد.

الثاني: أنه طلب المعونة من اللَّه، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ونجَّاه من الجُبِّ، وهيأ له أفضلَ مكان في مصر ليحيا فيه، ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدِّه.

وبعد كل هذا، أيستقبل كلَّ هذا الكرم بالمعصية؟ طبعاً لا.

أو: أنه قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [يوسف: ٢١]، ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

لا تأتي الصعوبة فقط من أنها تدعوه لنفسها، بل الصعوبة تزداد سوءًا؛ لأن لها زوجاً، هذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف، وتختار له مكانَ إقامة يليق بابنه، ولا يمكن أن يستقبل ذلك بالجحود والخيانة. ﴿رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦].

الحق سبحانه يريد أن يُوضِّح لنا أن يوسفَ كان طبيعياً، وهو قد بلغ أشُدَّهُ ونُضْجه، ولولا أنْ رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، ولو نظرتَ إلى كل أبطال القصة تجدهم تضافروا على أن يوسف لم يحدث منه شيء.

فيوسف نفسه قال: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: ٣٢].

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدقة لما قال: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وقالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

والنسوة اللاتي دَعتْهُنَّ امرأةُ العزيز ليشاهدوا جماله وليعذروها قُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وقد قُلْنَ فيما بَعْد: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ . .﴾ [يوسف: ٥١].

والعزيز نفسه أدرك ما وقعتْ فيه امرأته، فقال بعد ظهور براءة يوسف بعد شهادة شاهد من أهلها: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، فكلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر، وتسابقا في هذا الاستباق، وهذا يدلُّ على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير، وهي قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير؛ لأنها تريد أنْ تغلقَ الباب لتسدَّ أمامه المنفذ الأخير، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل، فهي تريده عن نفسه، وهو يريد الفرار من الموقف، ثم قدَّتْ قميصه من دُبُر.

وهذا دليلٌ على أنه قد سبقها إلى الباب، فشدَّته من قميصه من الخلف، وتمزَّق القميص في يدها.

وهنا حدثتِ المفاجأة، وهي ظهور زوجها عزيز مصر أمامهما وصار المشهد ثلاثياً: امرأة العزيز، ويوسف، وزوجها. وهنا ألقتِ المرأةُ الاتهامَ على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب، وإلقاء التُّهم على يوسف. ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ . . [يوسف: ٢٥]، ثم حددتِ العقاب ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، وهنا قال يوسف عليه السلام مُدافعاً عن نفسه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦].

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولَيْن مختلفيْن، قولها هي باتهام يوسف وقوله هو باتهامها، ولا بدَّ أنْ يأتي بمَنْ يفصل بين القولين، وأن تكون له دقةُ استقبال وفَهْم الأحداث. ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٨].

وعندما أيقن عزيزُ مصر براءة يوسف قال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩].

وبهذا القول من الزوج أنهى الحق سبحانه هذا الموقف عند هذا الحدِّ، الذي جعل عزيز مصر يُقرُّ أن امرأته قد أخطأتْ، ويطلب من يوسف أن يُعرضَ عن هذا الأمر ليكتمه.

وهذا يُبيِّن لنا سياسة بعض من أهل الجاه مع بيوتهم، وهو أمرٌ نشاهده في عصرنا أيضاً، فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أنْ يرى أهله في خطيئة ويتأبَّى أكثر من ذلك، فيرفض أن يرى الغيرُ أهله في مثل هذه الخطيئة، ويحاول كتمان الأمر في نفسه، فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف، ولا يريد أنْ يشمتَ به خصومه أو أعداؤه.

لكن الخبر شاع في المدينة ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠].

قَوْل النسوة هذا لم يَكُنْ غضباً للحق، ولا تعصُّباً للفضيلة، ولكنها الرغبةُ للنكاية بامرأة العزيز، وفضحاً للضلال الذي أقامتْ فيه امرأة العزيز وأردْنَ أيضاً أنْ يُنزلنَ امرأة العزيز عن كبريائها وينشرْن فضيحتها، فأرَدْنَ أنْ تصير مُضغة في الأفواه لأنها راودتْ فَتَاها وخادمها عن نفسه، وهو بالنسبة لها في أدنى منزلة، وتلك فضيحة مُزْرية مُشينة.

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مقصدهن: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

وهُنَّ حين آذيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مراودتها له عن نفسه تخيَّلْنَ له صورة ما من الحُسْن، لكنهنَّ حين رأيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنها عنه، فحدث لهُنَّ انبهار، فذهلوا عما في أيديهم، فقطعتْ كلٌّ منهن يدها بالسكين التي أعطتْها لها امرأةُ العزيز لتقطيع الفاكهة. ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠]، فَهُنَّ قد نزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة

العزيز، أو أن يوسف لا بُدَّ أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفنها، فقُلْنَ: لا بُدَّ أنه مَلَكٌ كريم.

ومعنى قولهن أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يُوجد لها مثيلٌ في البشر[١].

وهنا تقول امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأتْ تأثير رؤيتهنَّ ليوسف وأعلنتْ أنه [استعصم]، وهذا يعني أنه قد تكلَّف المشقة في حجز نفسه عن الفعل، وهو قولٌ يثبت أن رجولةَ يوسف غيرُ ناقصة، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل.

بل إنها تصدر الحكم عليها إنْ لم يوافقها فيما تريده من فعل الفاحشة، فتُعلن للنسوة أنه إنْ لم يُطعْها فيما تريد فلسوْفَ تسجنه، وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته.

أما النسوة اللاتي سمعنها، فقد طمعتْ كلٌّ منهنَّ أن تطرد امرأةُ العزيز يوسفَ من القصر، حتى تنفرد أيٌّ منهنَّ به؛ ولذلك يُورد لنا الحق سبحانه قَوْل يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ولعلَّ أكثر من واحدة قد نظرتْ إليه في محاولة لاستمالته وللعيون والانفعالات وقَسمات الوجه تعبيرٌ أبلغ من تعبير العبارات، وقد تكون إشاراتُ عيونهن قد دلَّتْ يوسفَ على المراد الذي تطلبه كلُّ واحدة منهن، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغةُ العيون دوراً هاماً.

فيوسف عليه السلام، السجن أفضل وأحبُّ إليه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل الفحشاء، أو يوافق النسوة على دعوتهنَّ له أنْ يُحرِّرَ نفسه من

---

(١) عن أنس رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «أُعطي يوسف وأمه شطر الحُسْن»، أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٨٦) والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٧٠) وأورد السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٣٢) عن ابن مسعود قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتتْ لحاجة ستر وجهه مخافةَ أنْ تُفتتن به، وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني.

السجن بأنْ يستجيبَ لها، ثم يخرج إليهن من القصر بعد ذلك.

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فيوسف أراد أنْ يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه؛ لأنه هو جلَّ وعلا مَنْ ربَّاه وتعهده، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألَّا يتخلى عنه في هذا الموقف.

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر، وإنْ لم يصرف اللَّهُ عنه كيدهُنَّ لاستجاب لغوايتهن، ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور، وعلى الرغم من أن السجن أمرٌ كريهٌ، إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه، ولأنه لجأ إلى المُرَبِّي الأول، لتأتي الاستجابةُ منه سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

وهكذا تفضَّل عليه اللَّه الذي خلقه وتولَّى تربيته وحمايته، فصرف عنه كيدهُنَّ، الذي تمثَّل في دعوتهن له أنْ يستسلم لمَا دعتْه إليه امرأة العزيز، ثم غوايتهن له بالتلميح دون التصريح.

تلك الغواية التي تمثلتْ في قَوْل الملك بعد ذلك: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وهكذا أنجاه اللَّه من مَكْر النسوة، وهو جلَّ وعلا له مطلق السمع ومطلق العلم، ولا يخفى عليه شيء، ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء.

وقد رفض يوسفُ الخروجَ من السجن إلا بعد أنْ يُحقق الملك في قضيته لتظهر براءته، فقال للساقي: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

وهكذا حرص يوسفُ على ألَّا يستجيب لمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذي هو فيه، إلا إذا برئتْ ساحته، وظهرتْ براءته، فقد يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك.

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعن أيديهنّ، ودعوْنَهُ إلى الفحشاء، واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

ويُخفي هذا القول في طيَّاته ما قالتْه النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء.

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة فليست تلك القصص للتسلية بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة.

وبراءة ساحة أيِّ إنسان هو أمر مهم، كي تزول أيُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أيُّ عمل، وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته، حتى لا يقولنَّ قائل في وشاية أو إشاعة «همزاً أو لمزاً»: أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز، وهو مَنْ راودته عن نفسه؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول: «عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه ـ واللَّه يغفر له ـ حيث أُرسلَ إليه ليُستفتى في الرؤيا، وإنْ كنتُ أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبتُ من صبره وكرمه ـ واللَّه يغفر له ـ أُتيَ ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنتُ أنا لَبادرتُ الباب، ولكنه أحبَّ أن يكون له العذر»(١).

وشاء نبينا ﷺ أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة، فقال ﷺ: «إن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. قال: لو لبثتُ في السجن ما لبثَ، ثم جاءني الرسول أجبتُ ثم قرأ (: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٤٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٠): (فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك)، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٤٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٢)، والترمذي في سننه (٣١١٦)، وقال: «حديث حسن» وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٤٦) كلهم من حديث أبي هريرة. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة»، وسكت عنه الذهبي.

وهكذا بيَّن لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة، وخشيته أنْ يخرج من السجن فَيُشار إليه: هذا مَنْ راود امرأة سيده.

وكان أنْ استدعى الملكُ النسوةَ، ونحن نعلم أن المراودةَ الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز واستعصم يوسف، ثم دَعَتْ هي النسوة إلى مجلسها، وقطَّعنَ أيديهن حين فُوجئن بجمال يوسف عليه السلام، وصدرت منهن إشارات ودعوات إثارة وانفعال. ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.. [يوسف: ٥١]، فهُنَّ لم يذكرنَ مسألة مراودتهنّ له، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك.

وقولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١]، أي: نُنزِّه يوسف عن هذا، وتنزيهنا ليوسف أمرٌ من اللَّه.

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

أي: أنها أقرَّت بأنه لم يَعُدْ هناك مجالٌ للستر، ووضح الحقُّ بعد خفاء، وظهرتْ حصَّة الحق من حصَّة الباطل، ولا مفرَّ من الاعتراف بما حدث، ولا بُدَّ من تبرئة يوسف، وهو في الحقيقة بريءٌ، بل هو في القمة من العفة والطهارة والنزاهة والاستعفاف عن الحرام رغم جماله وشبابه وفُتوته.

# أحضروا حُجَّتكم

عن معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه قال:

قال رسول اللَّه ﷺ:

«يَحْشُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ.. ثُمَّ يُنَادِي:

يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ، فَإِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ مُحَاسَبُونَ مَسْؤُولُونَ، يَا مَلَائِكَتِي.. أَقِيمُوا عِبَادِي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَافِ أَنَامِلِ أَقْدَامِهِمْ لِلْحِسَابِ»[1]

يُحدِّثنا اللَّه تبارك وتعالى في هذا الحديث القدسي عن حَشْر الخَلْق للوقوف بين يديْ اللَّه، لن يتخلف أو يفرّ منهم أحدٌ، يقول تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ويقول تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

أي: أن الحقَّ جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أنْ نفرَّ من علمه، ولا من قدره، ولا من عذابه.. وأن الطريق المفتوح أمامنا هو أن نفرَّ إلى اللَّه، وأنه لا منجاةَ من اللَّه إلا إليه، ولذلك لا يظن كافر أو عَاصٍ أنه سيفلت من اللَّه، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة، أو أنه لن يُحاسب أو أنه يستطيع أنْ يختفي.

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من اللَّه، وأنهم لن يُلاقوه. نقول لهم: إنكم ستُفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق، والجنة حق، والنار حق، ستُفاجأون بما سيحدث لكم، ومَن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيبقي له الخزي والعذاب الأليم.

إن اللَّه ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجو من عذاب اللَّه،

---

(١) أورده المتقي الهندي بنحوه من حديث معاذ في كنز العمال (ج ١٤/ حديث ٣٨٩٩٢)، وهو في الإتحافات السنية (٤٢٥)، وهو مما يشير إليه السيوطي بالضعف.

ويقول لنا: لن يفلتَ واحدٌ منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدي اللَّه للحساب.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، أي: أن اللَّه سبحانه وتعالى لا يعجزه شيءٌ، ولا يخرج عن طاعته شيء.. إنه سبحانه على كل شيء قدير.

وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى صوراً متعددة ومشاهدَ مختلفة ليوم القيامة، فأعطانا صورة للمعبود الباطل، وللعابدين للباطل، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش، وأعطانا صورة لمَنْ تعاونوا على الشر، ولمَنْ تعاونوا على الخير.

ومن هذه الصور التي ذكرها الحق سبحانه هي صورة حَشْر المتقين، فيقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

والوفد هم الجماعة تردُ على الملك لأخْذ عطاياه، وجمعها وفود، والواحد وافد، وهذه حال المتقين حين يجمعهم اللَّه تعالى يوم القيامة وَفداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى، ولا تظن أنهم يُحشرون ماشين مثلاً، لا بل كل مؤمن تقي يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها، رَحْلها من ذهب، وأزمّتها من الزبرجد.

وفي المقابل يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

فهناك مَنْ يدفعهم إلى النار دَفعاً، ونجد في حياتنا ـ وللَّه المثل الأعلى ـ الشرطيَّ يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن.. ذلك هو الدَّع، وهكذا يكون قول الحق سبحانه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، بضم التاء وفتح الجيم، أي: أنه مدفوعٌ بقوة قاهرة إلى النهاية، فهم يُدفعون إلى النار، ويُضربون على أقفائهم، ويُساقون سَوْقَ الدواب.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، فالآخرة ما كانت إلا للحكم وللفَصْل في الخصومات، حيث يعرف كلٌّ ما له وما عليه، فلا تظن أن الذين آذوْكَ وظلموك سيُفلتون من قبضتنا.

فهم يُرجعون للحساب وفي قراءة تَرْجعُونَ بفتح التاء، لأنهم سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم، كأنهم مضبوطون على ذلك، كالمُنبه تضبطه على الزمن، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم دون أنْ يسوقهم أحدٌ.

وعلى قراءة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، فإياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أنْ تتأبَّوْا علينا، كما تأبيتم على رسلنا في الدنيا، لأن الداعي في الدنيا كان يأخذكم بالرِّفق واللين، أما داعي الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورغماً عنكم، ولا تستطيعون منه فكاكاً ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

ويُحدِّثنا تعالى عن الحشر، فيقول: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، والصُّور هو البوق الذي يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية، فإذا جاءت النفخة الثانية نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً، والزرقة هي لونهم كما ترى شخصاً احتقن وجهه، وازرقَّ لونه بسبب شيء تعرَّض له، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام في كيماوية الجسم من الداخل، فهو انفعالٌ داخليٌّ يظهر أثره على البشرة الخارجية، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدثُ لهم هذه الزُّرقة.

وانظر إليهم ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، أي في هذه الحال التي يُحشرون فيها زُرقاً ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٣]، أي: يُسرُّون الكلام ويهمس بعضهم إلى بعض، لا يجرؤ أحدٌ منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى، والخائف حينما يُلاقي من عدوه مَا لا قبلَ له به يُخفي صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه. أو: لأن الأمر مَهُول لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقة للكلام، فليس في وسعه أكثر من الهمس.

فما وجه التخافت؟ وبمَ يتخافتون؟

يُسرُّ بعضهم إلى بعض ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، يقول بعضهم لبعض: ما لبثنا في الدنيا إلا عشرةَ أيام، ثم يُوضح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي، بدليل قوله في الآية بعدها: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

فانتهت العشرة إلى يوم واحد، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله سبحانه وتعالى حكايةً عنهم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، فكلُّ ما ينتهي فهو قصير.

إذن: أقوال متباينة تميل إلى التقليل، كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هي إلا ساعة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وما هذا التقليلُ لمدة لُبْثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم وقلَّة الخير الذي قدَّموه فيها، لقد غفلوا فيها فخرجوا منها بلا ثمرة، لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث، كأنه لم يكُنْ لديهم وقتٌ لعمل الخير.

حينها تخشع الأصواتُ للرحمن مصداقاً لقول الحق: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أن تضبط فيه جلبة الصوت، فما بالك بجمع كجمع القيامة من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة، ومع ذلك: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، فلماذا كتمت هذه الأصوات التي طالما قالت ما تحب، وطالما كان لها جَلبة وضجيج؟

الموقف الآن مختلف، والهَوْل عظيم، فلا يجرؤ أحدٌ من الهَوْل على رفْع صوته، والجميع كلٌّ منشغلٌ بحاله، مُفكِّر فيما هو قادم عليه، فإنْ تحدَّثوا تحدَّثوا سراً ومخافتةً: ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

واستمع إلى الحق سبحانه، وهو يصف اللحظة التي يخرج فيها الناس من قبورهم عند البعث والنفخ في الصور النفخة الثانية، فيقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٣].

والصور هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل، وهذه هي نفخة البعث، وتسبقها نفخة الصعق التي تُميتهم وتخمدهم، لذلك يقول سبحانه: ﴿فِى ٱلصُّورِ

﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فإن قلت: النفخة واحدة، فكيف تُميت الأولى وتُحيي الثانية؟ نقول: النفخة في الصور ما هي إلا علامةٌ فقط للحدث، أما الفاعل على الحقيقة فهو اللَّه سبحانه وتعالى، فهو الذي يميت في الأولى، ويُحيي في الثانية.

ومعنى﴿ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: القبور. ومعنى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، أي: يُسرعون، فإذا ما خرجوا من قبورهم ورأوا الحقيقة التي طالما كذَّبوها قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، هم الذين يقولون ويدْعُون على أنفسهم بالويل والثبور لا أحدَ يقول لهم: ويلكم. إنما يقولونها هم لأنفسهم وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم.

والمعنى: يا ويلنا احضر، فهذا أوانك لأن الأمر فوق ما نحتمل ولا نستطيع دفعه، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم، بل قد يضربها ويعذبها.

وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فيعترفون بأن الموتَ كان مجرد مَرْقد، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة. عندما يرد عليهم أي: ما ترونه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، ويجوز أنْ يكون اسمُ الإشارة إشارة إلى في ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ . . [يس: ٥٢].

الحق سبحانه أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريبَ فيه، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التي يعيشون فيها، فإن اللَّه مُدَّخر له عذاباً من نوع أشد، لأن الذين قاموا بالدعوة إلى اللَّه أول الأمر واضطهدوا وأُوذوا، منهم مَنْ مات في الاضطهاد قبل أن يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين، وقبل أن يرى انتقام اللَّه من أعدائه، فإذا كان الأمرُ كذلك فلا بُدَّ أن يُري اللَّه هؤلاء المؤمنين عاقبة الكافرين وما نزل بهم من العذاب. ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، فإذا هنا فجائية، فبمجرد الصيحة أُحضروا جميعاً رغماً عنهم وبدون اختيارهم، ومُحضر اسم مفعول من أحضر. يعني: أُجبر على الحضور والمُثول بين يدي اللَّه للحساب.

وهذا في حَدِّ ذاته آيةٌ من آيات اللَّه سبحانه وتعالى، يقول ربُّ العزة

سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، فحين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة، فميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة بل على مَهل، فالمرأة قبل أن تلد نشاهد حملها عدة أشهر، وتعاني هي آلام الحمل عدة أشهر فلا فجأة إذن.

ويوم القيامة هو أيضاً يوم الجمع، يُجمع له الناس، يقول ربُّ العزة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

فالمؤمن يعتقد أن يوم القيامة لا شكَّ فيه، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شكٌّ فيه، لأنه لو كان هناك ريبٌ فيه لكان الذين انحرفوا في الحياة الدنيا وولغُوا في أعراض الناس، وأخذوا أموال الناس، وعاثوا في الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا في سذاجة.

فالمنطق يقتضي أنه ما دام قد وُجدَ أناسٌ قد ظلموا واعتدوا، وأناسٌ أُعتدي عليهم، فلا بُدَّ أن يكون هناك حسابٌ، ولا يكون هناك حسابٌ إلا إذا انتهتْ حكاية الموت، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء اللَّه.

ودليلُ هذا من الجاحدين أنفسهم، كيف؟

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتُها القوانين التي تكفل حماية حركة المجتمع، هم يضعون مثل هذه القوانين، ومَنْ يخالفها يتم حسابه وعقابه، فإذا كان العقابُ يمنع المجاهرةَ بالجريمة، فماذا يكون الموقف؟ إن الماهر إذن هو مَنْ يفلح في المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب.

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع القوانين لحماية نفسها، فماذا تفعل هذه المجتمعات في الذين ستروا أنفسهم؟ هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا، وكان يجب أنْ تقولوا أنتم إنَّ هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقابُ مَنْ أفلت منا.

فأنت أيها الملحد قد قننتَ لمَنْ خالف تقنينك عقوبة، وهذا إنْ وقعت عليه

عينك، وقبضت عليه يدك، فما قولك فيمن لم تقع عليه يدك؟

وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة الذي لا ريبَ فيه ولا شكّ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتي الكافر على رغم أنفه، والمؤمن يبغي رحمةَ اللَّه وفضله ويفرح بلقاء ربه.

والجمع في هذا اليوم يكون من عدة وجوه: البعث حيث يجمع بين الجسم والروح، ويجمع الملائكة في الملأ الأعلى بالبشر، ويجمع الظالم والمظلوم والتابع والمتبوع.

وهو أيضاً يوم الحساب، فيحشر اللَّه عزَّ وجلَّ الناس كل الناس ويجمعهم للحساب، كما في الحديث القدسي الذي نحن بصدده: «أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَاف أَنَامل أَقْدَامهمْ للْحسَاب».

وقد وصف الحقُّ نفسه بأنه سريعُ الحساب، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالحق سبحانه يحذرك أن تستبطئ حسابه، لماذا؟ لأنه من الجائز أن يأتي لك الحساب من اللَّه في الدنيا وهَبْ أن اللَّه لم يَبتلِ هذا الإنسانَ ببلاء كبير في الدنيا، فإن هذا الإنسانَ سيكون له الحسابُ العسير في الآخرة.

وقد يقول قائل: إن الحساب في الدنيا قد يُؤجله اللَّه إلى الآخرة، والعلامات الصغرى للقيامة نحن في مراحلها، وما زالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر.

لمثل هذا القائل نقول: هناك فرقٌ بين الحدث في ذاته وبين الحدث فيمَنْ يُجري عليه الحدث، هناك فرقٌ بين أن تقوم القيامةُ على الناس جميعاً، وبين أنْ تُختصر حياة الإنسان بحادثة ليست في حسبانه، فقد تأتي له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب.

إن استبطأ إنسانٌ الحساب فعليه أن يعرفَ أن الآخرة قد تجيء له أسرعَ من مسائل الدنيا فالإنسانَ لا يقدر على أن ينقل إليه من يريد في أيِّ وقت.

وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطئ للحساب أسرعَ من حساب الدنيا، وكلمة﴿ٱلْحِسَابِ﴾ كلمة تُطمئن المؤمن إلى أن اللَّه قائمٌ بالقسط لا

يتخلى حتى عمَّن كفر به أو عصاه، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]، والجزاء أمرٌ طبيعي في الوجود، وحتى الذين لا يؤمنون بإله، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها.

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالقُ الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً، ولو لم يضع الحقُّ سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب لَنَال كل مفسد بُغْيته من فساده، ولأحسَّ أهل القيم أنهم قد خُدعوا في هذه الحياة.

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً فلا ظلمَ فيه إذن، لأنه صادر عَمَّنْ قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، فلا نجامل صاحب الحسنة، ولا نظلم صاحب السيئة.

و لا يجازي الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة، والجزاء إنما هو بما كسبتْ كلُّ نفس ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ﴾ [إبراهيم: ٥١]، يعني أن المؤمن أو الكافر سيلقى جزاء ما فعل إنْ ثواباً أو عقاباً.

والكسب كما نعلم هو أن تأخذ زائداً عن الأصل، فأنت حين تحرم نفسك من شيء في الدنيا ستأخذ جزاءً هو الثواب وما يزيد عن الأصل، ومن كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها، ويُقال: كسب السيئة. ولا يُقال: اكتسبها. ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية، ويفرح بارتكابها، ولا بُدَّ إذن من الجزاء، والجزاء يحتاجُ حساباً، والحساب يحتاج ميزاناً.

والحق سبحانه يُطمئن عباده فيقول: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، فوزن الأعمال إبطالٌ لحجة الذين يخافون النار ولم يُؤدوا حقوقَ اللَّه في الدنيا، وكلُّ ذلك يؤكد الحجة ويُظهر الإنصاف ويقطع العذر.

وهو مقتضى قوله هنا: «يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ فَإِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ مُحَاسَبُونَ مَسْؤُولُونَ»، فوزن أعمالكم عليكم واقع لا مفرَّ منه

فأعدّوا أنفسكم للحساب، وأحضروا حُجتكم وبرهانكم، ولكن لا تخشوا فاللّه يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فهذه الموازين هي عَيْنُ العدل، وليستْ مجرد موازين عادلة، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عَدْلٌ في ذاتها. فالقسط صفةٌ للموازين، وهي مصدر بمعنى عدل، كما تقول في مدح القاضي: هذا قاض عادل. أي: موصوفٌ بالعدل، فإذا أردتَ المبالغة تقول: هذا قاض عدل، كأنه هو نفسه عَدْل أي: معجون بالعدل، لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه: الحكم العدل. ولا نقول: العادل.

فموازينُ اللّه غير موازين البشر، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأنْ يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخُدع، لكن الحقَّ هو العادل الحق، وهو صاحب الميزان الأعدل، فالعدل عند اللّه أكثر دقة وله مُطلق الدقة.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، فهل هي موازين متعددة أم هو ميزان واحد؟

الخلق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كلٌّ منهم دوره، بل سيقفون صفوفاً كما ذكر الحديث القدسي هنا: «أقيمُوا عبَادي صُفُوفاً»، فيُحاسبون جميعاً في وقت واحد، لذلك لمَّا سُئلَ الإمام علي كرَّم اللّه وجهه: كيف يُحاسب اللّهُ الخلقَ جميعاً في وقت واحد؟ قال: كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد. فالمسألة صعبةٌ بالنسبة لك، أما بالنسبة للحق سبحانه فهي سهلةٌ ميسورة.

ومسألة الموازين هذه من المسائل التي وجد فيها المستشرقون تعارضاً في ظاهر الآيات، فجعلوا منها مأخذاً على كتاب اللّه، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، حيث أثبت الميزانَ في الأولى، ونَفاه في الثانية.

فهؤلاء لا يملكون المَلَكة اللغوية التي تُمكِّنهم من فهم كلام اللَّه، ولو تأملنا اللام في ﴿نُقِيمُ لَهُمْ . . .﴾ [الكهف: ١٠٥]، لانْحَلَّ هذا الإشكال، فاللام للملك والانتفاع، كما يقولون في لغة البنوك: له وعليه. والقرآن يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فمعنى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، أي: وزناً في صالحهم، إنما نُقيم عليهم وندينهم، كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل في اللغة: إما لوزن المادي أو لوزن المعنوي، كما نقول: فلانٌ لا وزنَ له في الرجال.

وعلى هذا يكون المعنى: أنهم لا وزنَ لذواتهم ومادتهم، إنما الوزن لأعمالهم، فلا نقول: كان من الأعيان، كان أصله كذا وكذا، وهذه المسألة واضحة في قصة ابن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، فالبُنوة هنا بُنوَّة عمل وإيمان، لا بُنوة ذات.

وقد ظنَّ الكفار والعصاة أن لهم وزناً عند اللَّه، ومنزلة ستكون لهم في الآخرة، كما كانت لهم في الدنيا، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

لكن هيهات أنْ يكون لهم وزنٌ في الآخرة، فالوزنُ في القيامة للأعمال لا للأعيان. إذن: المعنى لا نقيم لذواتهم إنما نزن أعمالهم، لذلك قال النبي ﷺ لقرابته: «لا يأتيني الناسُ بأعمالهم، وتأتوني بأحسابكم»(١).

وقال ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد، اعملي فإنِّي لا أُغني عنك من اللَّه شيئاً»(٢).

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول اللَّه قال: (إن أوليائي يوم القيامة هم المتقون، وإنْ كان نسبٌ أقرب من نسب، لا يأتي الناسُ بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، وتقولون: يا محمد، فأقول هكذا، وأعرض في عطفيه) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٤).

(٢) عن حذيفة قال: جئتُ إلى النبي ﷺ والعباس جالسٌ عن يمينه وفاطمة رضي اللَّه عنها عن يساره. فقال: «يا فاطمة بنت رسول اللَّه، اعملي لله خيراً، فإنِّي لا أغني عنك من اللَّه =

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها في هذا الموقف، بل الأعمال هي مقياس التفاضل والجزاء، ولن يظلم اللَّهُ أحداً مثقال ذرة، يقول تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أي: لهم أو عليهم، فإنْ كانت لهم علموا أن اللَّهَ لا يظلمهم، ويبحث لهم عن أقلّ القليل من الخير، وإنْ كانت عليهم علموا أن اللَّه يستقصي كل شيء في الحساب، وحبة الخردل تدل في صغرها على الحجم، وكلمة مثقال تدل على الوزن، فجمع فيها بين الحجم والوزن.

ثم يعقِّب الحق سبحانه على هذه المسألة: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فلا أحدَ يجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن، فليستْ عندنا غفلة، بل دقة وضبط لمعايير الحساب.

ولا تظن أن مسألةَ الحساب والميزان مسألةٌ سهلة يمكن أن تصلَ فيها إلى الدقة الكاملة، مهما أخذت من وسائل الحيطة، فأنت بشر لا تستطيع أن تزن الوزن المضبوط لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضةٌ للزيادة والنقصان.

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً، وهذا في صالح المَوزون له، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجةَ الملامسة للأشياء، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعة على خلاف ما حولها. إذن: أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها.

حتى في الموازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة، فبشرية الإنسان لا يمكن أن تعطي الدقة المتناهية، وهذا معنى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، لأن معياره تعالى لا يختلف، ولا ينسى شيئاً، ولا يغفل عن شيء.

حتى أنهم يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٦]، أي: لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٦]، فكل ما فعلوه مُسجَّلٌ مُسطَّرٌ في كتبهم. ﴿وَلَا يَظْلِمُ

= شيئاً يوم القيامة» أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار.

رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يُؤاخذهم إلا بما عملوه. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ . . [الكهف: ٤٩]، فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به. وما عملوه سيجدونه مُسطراً في كتبهم، ويُقال لكل واحد منهم: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]، فالحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة، حيث يقف العبدُ بين يديْ ربِّه عزَّ وجلَّ، فيدعوه إلى أنْ يقرأ كتابه بنفسه، ليكون هو حُجة على نفسه، ويُقرّ بما اقترف، والإقرار سيد الأدلة.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

فهذا موقفٌ لا مجالَ فيه للعناد أو المُكابرة، ولا مجالَ فيه للجدل والإنكار، فإن حدث منه إنكار جعل اللَّهُ عليه شاهداً من جوارحه، فيُنطقه الحق سبحانه بقدرته يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

فالحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وجعله سيدَ هذا الكون، وسخَّر له كلَّ شيء، ومما سخَّر له سخَّر أبعاضه لإرادته، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته، فإنْ كان مؤمناً قال: اللَّه واحد. وإنْ كان غير ذلك قال: اللَّه ثالثُ ثلاثة. كذلك سخَّر له العينَ تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم، كذلك الرِّجْل.

فكلُّ جوارحك سخَّرها اللَّهُ لك إنْ أردتَ منها طاعةً أطاعتْ، وإن أردتَ منها معصيةً عصتْ، فالإرادةُ هي التي تُملي ما تريده، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة.

ونمثِّل لذلك بالقائد الأعلى للجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة في مهمة ما، فعلى الكتيبة أن تطيعَ أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمياء، حتى لو كانت هذه الأوامر في غير صالحهم، وليس لهم أن يعترضوا عليه، حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكوْا له ما كان من قائدهم المباشر، كذلك طاعةُ الجوارح لإرادة الإنسان في الدنيا.

أما في الآخرة فسوف تُسْلب منه هذه القيادةُ لجوارحه، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق العليِّ سبحانه، ففي الآخرة لا سلطانَ

لأحد إلا اللَّه. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

فهم يتعجَّبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهي منهم، والسؤال هنا كان ينبغي أن يكونَ عن الكيفية: كيف شهدتُم علينا؟ لا عن السبب، فالسؤال بهذه الصيغة غيرُ وارد ليدلّ هذا على التضارب في الكلام.

وكان الجواب: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، فالسؤال عن شيء والجواب عن شيء آخر، فلو أجابوا عن السؤال: لم شهدتم علينا. لقالوا: شهدنا عليكم، لأننا أقوى حارس عليكم في جميع الأوقات. ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

يعني: الأمر ليس بملكنا فنحن لم نشهد من عندنا، فستنطق الأرجل والجلود وتشهد، لأنها كانت في الدنيا مقهورة لإرادتي، كنت أقول ليدي: افعلي كذا. ولرجلي: اسعي كذا. وللساني: سُبّ فلاناً.

فاللَّه سخَّر الجوارح وأمرها: يا جوارح أنت خاضعةٌ لإرادة صاحبك في الدنيا، لكن في يوم القيامة: أيكون لي إرادةٌ على جوارحي؟ لا، ستتمرد عليَّ جوارحي، وتقول لنا: أنتم استخدمتمونا في الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها.

فبيده يضرب ويعتدي، وبيده ينفق ويقيل عثرة المحتاج، وبرجْله يسعى إلى بيت اللَّه، أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد.

ولكن فعل جوارحك ما تأمرها به ليس دليلاً على الرضا عنك وعمَّا تأمرها به، بل هي تفعل ما تريده أنت وهي كارهةٌ ولاعنة له، وهي مُبْغضةٌ لك ولفعلك، فإذا كان يوم القيامة انحلَّتْ من إرادتك وخرجتْ من سيطرتك، وشهدتْ عليك بما كان منك.

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة: لقد أتعبتني في الدنيا وأكرهتني على فعل أشياء لم أكُنْ لأفعلها لأنني عابدةٌ مُسبِّحة للَّه، وإن ما أمرتني به يخرج عن طاعة اللَّه عز وجلَّ.

فمادة الإنسان خاضعةٌ لإرادة صاحبها في دنيا الأغيار، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثيرَ له على المادة، وتتحرر المادةُ من طاعة صاحبها في المعصية وتتمرد عليه، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها في المعصية.

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين، وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزومَ له، لذلك نجدهم يسألون جوارحهم: لمَ شهدتم علينا؟ لأن الجوارح كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم، لأن اليد هي التي امتدت لتسرق، واللسان هو الذي نطق قَوْلَ الزُّور، والقلب هو الذي حقد، والساق هي التي مشتْ إلى المعصية.

والإنسان كما نعلم مُركَّب من جوارح، وهذه الجوارح لها أجهزة تُكوِّن الكل الإنساني، ومدير كل الجسم هو العقل، فهو الذي يأمر اليد لتمتدَّ وتسرق، أو تمتد لتُربِّت على اليتيم، والعين تأخذ أوامرها من العقل، فإما أنْ يأمرها بأنْ تنظرَ إلى جمال الكون، وتعتبر بما تراه من أحداث، أو يأمرها بأنْ تنظر إلى الحرام.

إذن: الجوارح خادمةٌ مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته، لكن الأمر يختلف في الآخرة، حيث لا أمرَ لأحد إلا اللَّه، فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا، لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله.

فدعونا اليوم لنشهد، إنها تُخرج أسرارها لأن المُلْك الآن للواحد القهار: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير اللَّه إرادةٌ على الأبعاض.

لذلك يُقال للإنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، أي: كفانا أنْ تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك، فكتابك حجة عليك، فها هو تاريخك، وها هي قصتك، ليس كلاماً من عندنا، وإنما هو فعلك والحجةُ عليك.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، فالمراد هنا كتاب أعمالنا الذي سجّل فيه كل شيء قدَّمته

الأيدي، لكن: ما الحكمةُ من تسجيل الأعمال؟ وهل يكذّب العباد ربهم عزَّ وجلَّ فيما سُجِّلَ عليهم؟

قالوا: الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجةً على صاحبها وليعلم أن اللَّه ما ظلمه شيئاً، لذلك سيقول له ربه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤]، يعني: بنفسك حتى تُقام عليك الحجة، ولا يكون عندك اعتراضٌ.

فهل للإنسان قدرةٌ على الردِّ رغم أن اللَّه عزَّ وجلَّ يقول هنا في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ».

فهذا يوم السؤال، يوم نُسأل عما فعلنا، يقول تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ويقول الحق سبحانه عن موقف السؤال هذا: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، أي: احبسوهم للسؤال والحساب، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً، فكلُّ واحد مهم سيُسأل وسيُناقش. قالوا: في السؤال تبكيتٌ النفس للنفس قبل أنْ يُبكِّتهم اللَّه. يعني ساعة يُعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم، ويندمون ساعة لا ينفع الندم.

وكلمة موازين جمع ميزان، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها، لأن التقدير يقع على عدة أشياء: على الكثافة بالوزن، وعلى المسافات بالقياس.. الخ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت، فمثلاً: المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل، وهو موضوع الآن تقريباً في باريس، وكذلك الياردة، وجعلوا للوزن معايير من الحديد: الكيلو والرطل.. الخ.

كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أما المؤمن الواثق فهو يُهرول إلى آخرته مُشتاقاً لوجه ربه.

وربُّ العزة سبحانه وتعالى يقول هنا في الحديث القدسي:

«أَقِيمُوا عِبَادِي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَافِ أَنَامِلِ أَقْدَامِهِمْ لِلْحِسَابِ».

ولك أن تتصوَّر المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميْه، لأن ثقلَ الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف، وعلى المقعدة

في حال الجلوس، وعلى الجسم كله في حال النوم، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين فلا شكَّ أنه وضعٌ مؤلمٌ وشاقٌّ يصعب على الناس، حتى إنهم لَيتمنوْنَ الانصراف ولو إلى النار.

والحق سبحانه وتعالى يبرز لنا هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

فالعرْض على اللَّه سبحانه لا يستطيع فيه أحدٌ التخفي، ولن يكون لأحد منه مفرٌّ، وهم واقفون صفوفاً متداخلة بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه، فالجميع واضحٌ بكل أحواله.

فالعرْض أن يستقبل العارضُ المعروضَ استقبالاً مُنظَّماً يدل على كل هيئاته، كما يستعرض القائدُ الجنودَ في العرض العسكري مثلاً، فيرى كل واحد من جنوده أي: صفوفاً منتظمة، حتى الملائكة تأتي صُفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

ثم يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

أي: على الحالة التي نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك، وقد فُصِّلَ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أي: أن كلّاً منكم يأتي إلى اللَّه فَرْداً عما كان له في دُنياه من مال أو ولد أو أتباع، جاء كلٌّ منهم للَّه وليس معه الأصنام التي ادَّعى أنها شركاءُ للَّه، واتخذهم شفعاءَ له. و«فرادى» جمع «فرْدان» أو فريد، مثل سكارى جمع سكران، وأسارى جمع أسير، إنهم يأتون إلى اللَّه زُمراً وجماعات، ولكن كلّاً منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع، بدليل أنه قال: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهم حين يُفاجَأون بالنفخ في الصُّور، وتداهمهم القيامةُ بأهوالها التي كانوا غير مؤمنين بها على الحقيقة، بُهتوا ودُهشوا، وخرستْ ألسنتهم عن

الكلام من شدة دهشتهم، كيف وما كانوا ينكرونه ماثلٌ أمامهم فجأة، ثم يتدرجون من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مفرَّ منه، فيبدأون بالكلام، ويسأل بعضهم بعضاً عَمَّا هم فيه، وعمَّا نزل بهم.

لا يستطيع أحد منهم الكلام في هذا الموقف إلا بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وهنا في هذا الحديث القدسي يقول: «يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ».

ولكنهم على الحقيقة لن يتكلموا إلا بإذن منه سبحانه، رغم أنهم كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التي منحهم إياها اللَّهُ سبحانه، حين أخضع لهم جوارحهم، وجعل الحقُّ سبحانه الجوارحَ مؤتمرةً بأمر الإنسان، وشاء سبحانه أنْ يجعل بعضاً من خَلقه نماذجَ لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح، فتجد الأخرسَ الذي لا يستطيع الكلام، وتجد المشلولَ الذي لا يستطيع الحركة، وتجد الأعمى الذي لا يبصر، وغير ذلك.

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من اللَّه تعالى، وليست ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، يُبيِّن لنا سبحانه تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا، فهي ترضخ لإرادتنا، لأنه سبحانه شاء أنْ يُسخِّرها لأوامرنا ولانفعالاتنا، ولا أحدَ فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العام للإرادة أنْ تنفعلَ لها الجوارحُ.

وقد يسلب اللَّهُ سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارحُ للإرادة، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وليس هذا فقط، فإن الحق سبحانه يبعث الناسَ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً، وقد نطق بهذا حديثُ رسول اللَّه ﷺ عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «يبعث اللَّهُ الناسَ يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً. فقالت

عائشة: يا رسول اللَّه.. فكيف بالعورات؟ قال: لكلِّ امرئ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه»[(١)].

وقد أصاب هذا القولُ السيدةَ عائشة بالاستغراب والذهول، فهي رضي اللَّه عنها عندما سمعت سيدنا رسول اللَّه وهو يُحدِّثهم عن القيامة، ويذكر أن الشمسَ تدنو من الرؤوس، والخَلْق يقفون عرايا، استاءتْ وسألتْ رسول اللَّه: كيف يقف الناسُ عرايا ينظر بعضُهم إلى عورة بعض؟

فأجابها رسول اللَّه ﷺ أن كلَّ امرئ مشغولٌ بنفسه، وأن الأمرَ أعظمُ من أن ينظرَ أحدٌ لعورة أحد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

فالعرْض على اللَّه سبحانه لا يستطيع فيه أحدٌ التخفي، ولن يكون لأحد منه مَفَرٌّ، وهم واقفون صفوفاً متداخلةً بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه، فالجميع واضحٌ بكل أحواله.

فكان ردّ رسول اللَّه ﷺ أن الأمر أخطر وأكبر من أن ينظرَ الناسُ إلى بعضهم البعض، فكلٌّ منهم مشغولٌ بما ينتظره من حساب ووزن لأعمالهم والاطلاع على كتاب الحسنات والسيئات والسير على الصراط.

لكل منهم ما يشغله، أنْ ينجوَ من النار حتى ولو بالزحزحة عنها، وأن يدخل الجنة ولو وراء بابها، ولو في موضع سوط (كرباج) منها، فهو خيرٌ من الدنيا وما فيها.

يقول الحق تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فالفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة، ولكن على درجتين، أولى درجات الفوز أن يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوزٌ عظيم، يكفي أنك تمرّ على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهَوْل كله.

يكفي ذلك ليكون فوزاً عظيماً، لأن الكافرَ في هذه اللحظة يتمنى لو كان

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٧/ ٢٢٤) كتاب البعث، وأحمد في مسنده (حديث ٢٣٤٤٧) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

تراباً حتى لا يدخلَ النارَ، فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمةٌ لأنه يُحسُّ بما نجا منه، فإذا تجاوز النارَ ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيماً خالداً كان هذا فوزاً آخر.

لذلك حرص اللَّهُ تبارك وتعالى أنْ يعطينا المرحلتين، فلم يَقُلْ: مَنْ زُحزح عن النار فاز، ولم يقل: من أُدخل الجنةَ فاز. بل قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].